

نحو نظرية لسانية عربية؛ قراءة ونقد منجز البحث اللساني الحديث

أ. إسماعيل ابن سماعيل - جامعة عمارثليجي
الأغواط

الملخص

يهدف هذا البحث الى تسليط الضوء ورصد حركية مسار البحث اللساني الحديث في ثقافتنا العربية من خلال دراسة إبستمولوجية لمعطيات البحث اللساني ومن خلال مرجعية نقدية لأهم إنجازات علماء اللسان العرب على اختلاف اتجاهاتهم ومناهجهم سواء منهج لسانيات التراث والمنهج البنيوي الوصفي والمنهج التوليدي التحويلي والاتجاه الوظيفي ، في محاولة لاستبطان صيرورة المنجز اللساني العربي ولتشخيص مختصر لواقع اللسانيات في الثقافة العربية ، فهناك إنجازات تمتاز بالجدية والشمولية تستدعي الوقوف عندها كونها استوفت شروط بناء نظرية اللسانية وبالتالي يمكن الحكم على أن أصحابها استطاعوا بلورة نظرية لسانية مميزة جدية بالاهتمام والتقدير تؤسس فعلا لانطلاقة تفكير لساني جاد على خريطة البحث اللساني في ثقافتنا العربية . وهناك بعض الدراسات التي بقيت تدور في فلك ما جاء في التراث من قضايا لغوية سواء اتفاقا أو اختلافا، ولم يتعد أصحابها حدود اللغة الواصفة ولم يضيفوا شيئا الى البحث اللساني العربي، وبالتالي لم ترق إنجازاتهم ومحاولاتهم أن تصل الى حدود النظرية اللسانية.

الكلمات المفتاحية:

نظرية لسانية عربية، مسار البحث اللساني الحديث، إنجازات علماء اللسان العرب، التراث اللساني العربي.

Abstract

Le but de cette recherche est de mettre la lumière sur la dynamique de la trajectoire des recherches linguistiques contemporaines dans notre culture arabe à partir d'une étude épistémologique de données de recherches linguistiques et à partir des références critiques des réalisations les plus importantes des érudits arabes de différents orientations et méthodologie : que ce soit l'approche linguistique traditionnelle, l'approche descriptive structurelle, l'approche transformationnelle générative ou l'approche fonctionnelles de la grammaire, par un essai pour faire une évaluation de réalisations linguistiques arabe, et faire le diagnostic bref sur la réalité linguistique dans la culture arabe.

il y a des projets et des réalisations caractérisés et intéressants qui satisfaisaient aux exigences de la formation d'une théorie linguistique. Nous pouvons juger que les prestataires de ces théorie ont réussi à construire une véritable théorie linguistique particulière qui est digne d'attention et d'appréciation. Ainsi, une rampe de lancement d'une pensée linguistique sérieuse a été établie dans notre culture arabe. Par contre certaines études sont restées en orbite de tout ce qui est venus dans l'héritage soit par accord ou par contre et leurs prestataires ne dépassent pas les limites de la langue descriptive et ils n'ont rien ajouté aux recherches linguistique.

Mots clés:

Théorie linguistique arabe, les recherches linguistiques contemporaines, les réalisations des linguistes arabes, le patrimoine linguistique arabe.

مقدمة :

لقد تبوأَت الدراسات المعاصرة منزلة مرموقة فكانت بمثابة مركز اشعاع ومنازة تهتدي بها سفن العلوم الانسانية قاطبة وحتى العلوم الطبيعية والتجريبية كالبيولوجيا والفيزياء والرياضيات والإعلام الآلي بما فيه تقنيات البرمجة والتخزين المعلوماتي حتى غدت تسمى باللسانيات الحاسوبية فجميع هذه العلوم استبقت

وطرقت باب اللسانيات بل قد نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول أنها أصبحت " موضحة " فأغلب العلوم الانسانية تلجئ إليها بل وتجد ضالتها في علوم اللسان وما أفرزته هذه الأخيرة من تطورات متقدمة في جميع مناهجها وفي نتائجها العلمية فأصبحت . وكما أشار الكثير من الباحثين وعلماء اللسان . جسرا تعبر منه معظم العلوم الأخرى ، باعتبار أن موضوع اللسانيات ومادتها الخام هي "اللغة" فاللغة عنصر مشترك في البحث المعرفي فيها نستطيع أن نفهم ونتواصل فهي عنصر قارّ في العلم وفي المعرفة الانسانية وبذلك أصبحت اللسانيات قطب الرحى في البحث المعرفي والتفكير الانساني الحديث.

لقد كان للعرب سبق في مجال الدراسات اللسانية وهذه الحقيقة مثبتة تاريخيا "فالحضارات العربية حضارة لغة وبيان استمت قبل كل شيء بالمقوم اللفظي حتى كاد تاريخ العربي يتطابق وتاريخ اللفظ في أمته ولم تكن معجزة الرسول (ص) إليهم إلا من جنس حضارتهم في خصوصيتها النوعية وهذا ما استقر لدى المفكرين منهم منذ مطلع نهضتهم"¹.

لكن السؤال الذي يطرح في هذا المقام والذي كثيرا ما يطرح حتى عند الباحثين واللسانيين العرب أنسفيهم: "هل استطاع العرب بلورة نظرية لسانية عربية ؟" قبل الاجابة عن هذا السؤال يحتم علينا أولا تحديد مفهوم النظرية عامة والنظرية اللغوية على وجه الخصوص وكذا تحديد شروطها لأن مفهوم النظرية هو مفهوم متعدد الدلالات (polysémique) فهو لا يكتسي تحديد نمطيا أو متجانسا بل يكتسي دلالات مختلفة وفق سياقات ثقافية مختلفة كذلك كبيئة الثقافة الاسلامية وطبيعتها أو طبيعة البنية اليونانية التي تميل إلى التأمل والتجريد.

ففي اللغة العربية " النظرية " مشتقة من النظر الذي يحمل في دلالاته معنى التأمل العقلي ، و" النظرية " هي ترتيب أمور معلومة على وجه يؤدي إلى استعمال ما ليس بمعلوم، وقيل النظر: طلب علم من علم². وهذا ابن رشد كذلك يربط النظر بمفهوم الاعتبار والاعتبار في نظره هو القياس ولما كان الأمر كذلك فإن النظر العقلي هو أفضل أنواع البرهان لأنه يتم بأفضل أنواع القياس.

أما لالاند (Ialande) فيعطي للنظرية بعدا فلسفيا يقترب أكثر من الدلالة المعجمية بالفرنسية (théorie) التي تفيد أن النظرية بناء أو نسق متدرج من الأفكار يتم فيه الانتقال من المقدمات إلى النتائج ، وقد حدد لها عدة تقابلات كتقابل النظرية بالممارسة والتطبيق كشرط أساسي في بناء النظرية وكذا تقابلها اليقينية والنهائية ، لأن النظرية هي بناء فرضي استنباطي يعطي رؤية العالم حول قضية ما^{3.1}.

إذن فالنظرية هي تلك الفروض الذهنية التي يقدمها العلماء في استنباطهم للأنظمة التي يدرسونها⁴. شروطها:

إضافة إلى الشرط الأساسي في بناء أي نظرية بما فيها النظرية اللغوية هو الممارسة والتطبيق بإجماع العلماء والباحثين وكما حدده لالاند. كما أشرنا سابقا . نجد كذلك: العموم ، التجريد ، الاكتمال ، والبساطة ، الاقتصاد ، الاتساق العام ، الكفاية في وصف اللغات وكذا صلاحياتها للتطبيق على أكبر قطاع من اللغات⁵.

فهل يا ترى توفرت هذه الشروط في الدراسات اللسانية العربية والبحث اللغوي العلمي عند العرب رغم ذلك الأثر اللغوي والركام الحافل والغني الذي أفرزته الحضارة العربية من دراسات لغوية التي تبحث عن الظاهرة اللغوية في جميع جوانبها الصوتية والتركيبية والدلالية على غرار الحضارة الهندية والحضارات الاغريقية ؟ أم أنها مجرد قبسات أو إرهابات أو تمظهرات جزئية في تشكل الخطاب اللساني الحديث ؟

وهل يا ترى توفرت تلك الشروط في الدراسات اللسانية العربية التي يزعم أصحابها . إن صح هذا الحكم . على أنهم استطاعوا من خلال جهودهم وأعمالهم الوصول إلى إرساء مشروع لساني لغوي عربي أو الى بناء نظرية عربية خالصة قد تضاهي نظراتها الغربية ؟

وفي خضم الإجابة عن هذا التساؤل لا ضير أن نخرج على البحث في أصول الدراسات اللسانية العربية من حيث مشروعية الأصل الصحيح هل هو التراث الفكري اللغوي القديم الذي أفرزته الحضارة العربية أم النظرية اللسانية عند العالم السويسري فردينان دي سوسيور (Ferdinand de Saussure) والنظريات الغربية التي جاءت بعده ، باعتباره الأب الحقيقي للسانيات ، وتاريخها الذي يبدأ بمحاضراته التي كان يلقيها على طلابه والتي نشرت بعد مماته سنة (1919م) هذه النظرية التي كشفت عن وعي فلسفي لساني جديد يعرف بالفلسفة الآنية (البنوية) والتي تطورت وتمخضت عنها عدة نماذج لسانية استمرت في التطور كظهور اللسانيات البنوية (structure linguistique) على يد بلوم (bloom vid) في كتابه اللغة (langage) ، حتى عام (1957م) بمجيء العالم الأمريكي نوم تشومسكي (N.chomsky) الذي أحدث ثورة وانعطافا عظيما ليس فقط في عالم

اللسانيات بل حتى في تاريخ العلوم الانسانية والطبيعية بقلبيها رأسا على عقب من خلال نظريته الجديدة المسماة " نظرية القواعد التوليدية التحويلية " والتي كان لها بالغ الأثر في الاتجاهات اللسانية العربية وتشكيل الخطاب اللساني من خلال نماذجها التطبيقية المتطورة التي طفت بجلاء على سطح التنظير اللغوي والخطاب اللسانية العربي.

إن صلة الدراسة اللسانية العربية بالتراث اللغوي ذو شجون ، هذه الصلة التي تعمل على تأصيل البحث اللساني العربي من خلال الظاهرة اللغوية العربية ، وهذه الحقيقة ثابتة حقيق علينا الإقرار بها وذلك بتسليمننا بمبدأ الخطية (*la linéarité*) أي ما ترك السابق للاحق والأول للآخر ، فالخطاب اللساني المعاصر يتخذ من " التراث اللغوي العربية القديم في شموليته موضوعا لدراساته المتنوعة ، أما المنهج الذي يصدر عن أصحاب هذه الكتابة فهو ما يعرف عادة بمنهج القراءة أو إعادة القراءة ، ومن غايات اللسانيات التراث وأهدافها قراءة التصورات اللغوية القديمة وتأويلها وفق ما وصل إليه البحث اللساني الحديث والتوفيق بين نتائج الفكر اللغوي القديم والنظريات اللسانية الحديثة وبالتالي إخراجها في حلة جديدة تبين قيمتها التاريخية والحضارية"⁶.

وعلى غرار التسمية المميزة بوصف الدراسات اللغوية القديمة بلسانيات التراث نستشف من كلام مصطفى غلفان دعوته إلى التوفيق والمزج بين الأصالة اللغوية والدرس اللساني المعاصر أي تأسيس وتطعيم البحث اللغوي المعاصر على أصول الماضي ، إلا أن هناك فئة ثانية ذهبت إلى أبعد من هذا وهي الفئة التي بقيت تنظر إلى التراث بنظرة القداسة ، أي قداسة اللغة العربية أو ما يصطلح عليه في

المصطلح اللساني الحديث (اللغة الواصفة) لكن الاشكالية المطروحة في هذا المقام: هل نستطيع الجزم بأن العرب قد وصفوا اللغة العربية وصفا شاملا كاملا؟ يقول عبد السلام المسدي في هذا الصدد: "فالعرب بحكم مميزات حضارتهم وبحكم اندراج نصّهم الديني في صلب هذه المميزات قد دعوا إلى تفكر اللغة في نظامها وقدسيّتها ومراتب إعجازها فأفضى بهم النظر لا إلى درس شمولي كوني للغة فحسب ، بل قادهم النظر أيضا إلى الكشف عن كثير من أسرار الظاهرة اللسانية مما لم تهتد إليه البشرية إلا مؤخرا بفضل ازدهار علوم اللسان منذ مطلع القرن العشرين"⁷.

وفي نفس السياق يقول مازن الوعر في كتاباته: "إن أية نظرية لسانية عربية حديثة تطمح لأن تكون علمية فاعلة ومتفاعلة في حقل التكوين اللساني المعاصر لا بد لها من أن تتجاوز المشكلات والمجادلات الزائفة التي تعوق البحث اللساني في الثقافة العربية المعاصرة ، تلك المشكلات الناتجة عن الصراع الذي ما زال مستمرا بين أنصار القديم وأنصار الحديث ، بين أنصار القديم المتعلق بالبحوث اللغوية العربية التي وضعها العرب القدماء وبين أنصار الحديث المتعلق بالبحوث اللسانية الغربية التي وضعها علماء الغرب المحدثون وأسسوا من خلالها علما قائما برأسه دعوه علم اللسانيات"⁸.

فمازن الوعر يدعو من خلال كتاباته إلى إزالة ذلك الخلاف بين لساني التراث وأنصار اللسانيات الحديثة أو الفئة الثالثة التي تتبنى موقفا آخر مفاده أن التفكير اللغوي القديم أو معطيات التراث اللغوي القديم لا تصلح لدراسة أو وصف اللغة العربية في عصرنا هذا أو ما يعرف باللسانيات العربية الحديثة أو الدرس اللساني

العربي الحديث بعد اتصال زمرة من الأعلام والمفكرين والباحثين اللسانيين العرب بالغرب وانهارهم بالمناهج والاتجاهات اللسانية الغربية الحديثة.

ومن بين هؤلاء اللسانيين نجد موقف ميشال زكريا بعدما صرح قائلا: "لا نفع بعد الآن نردد بصورة متواصلة الدراسات التي قامت بها الأجيال السابقة والمفاهيم التي تبناها في المجالات اللغوية وإن أضفينا عليها بعض التعديلات السطحية من حيث الشكل والعرض فهذه الدراسات وإن دلت على المجهود الذي قام به اللغويون في مجال دراسة اللغة وإن كانت تساعدنا على فهم بعض القضايا اللغوية ، لم تعد تفي في الحقيقة في مجال تحليل اللغة ففي هذا المجال تكون النظريات اللسانية العلمية الحديثة في نظرنا التقنية المتطورة التي نتسلح بها لسبر قضايا اللغة وتفسيرها وتوضيحها"⁹

وفي نفس السياق أي في إطار الصراع السوسiolوحي القائم بين أنصار القديم وأنصار الحديث أو بين (الأصالة و المعاصرة) يصرح الفاسي الفهري معبرا عن موقفه الذي يرى عدم جدوى الاعتماد على بعض معطيات الفكر اللغوي القديم و النحو التقليدي لأنها كثيرا ما تكون ناقصة وغير صالحة لوصف اللغة العربية الحالية¹⁰ ، فهو يلمح بطريقة غير مباشرة وعلى غرار ميشال زكريا الذي يصرح بضرورة اللجوء والاستعاضة بالنظريات الحديثة كبديل لوصف ودراسة قضايا اللغة العربية الحالية وإعادة مسار التفكير العربي والثقافة العربية نحو الدرس اللساني الغربي أو بطريقة أخرى صنع فكر لساني معاصر.

ولكن السؤال المطروح هنا هل استطاع أصحاب هذا الاتجاه بناء درس لساني عربي مبتورا عن أصوله التراثية أي بعد الاستغناء عن التراث النحوي القديم؟

الأکید أن الإجابة ستكون بالنفي ، ولعل تمام حسان يرى الحل الأمثل بمسك العصا من وسطها فيقول: "وتشعبت المسالك أمام الشُّعب بعد أن ثأب وتمطى ونفض عن نفسه غبار الموت ، فوجد أمامه طريقا في الماضي يقوده الى التراث العربي الخصب ، ورأى أنه لو بعث هذا التراث وأحياء لكان دافعا جديدا لعزة جديدة لا تقل روعة عن التأريخ العربي نفسه ووجد أمامه طريقا في المستقبل معالمة ما في أيدي الأمم ومعارف... ثم رأى أنه لو سلك الطريق الأول فحسب لا تقطع به التأريخ عن الحياة ، ولو سلك الثاني فحسب لانقطعت به الحياة عن التأريخ ففضل أن يأخذ بنصيب من التراث العربي يوحى إليه بالاعتزاز ، ونصيب من الثقافة المعاصرة يمنحه العزة"¹¹.

ولتشخيص مفهوم النظرية وتحديد أبعادها وإطارها العلمي في الدرس اللساني العربي المعاصر يجب رسم سورة عامة واضحة المعالم لمختلف اتجاهات البحث اللساني العربي والوقوف على أهم أعلامه ثم تحليل هذه الاتجاهات بتحديد أهدافها والمنهج المتبع لكل منها وأخيرا تقييم إنجازها وإن كان من الصعب تحديد تصنيف دقيق وشامل للكتابات اللسانية العربية بسبب:

1. انعدام استقرار تام لكل الادبيات اللسانية العربية الحديثة.

2. عدم استقرار الكتابات اللسانية العربية على خط نظري واحد ، فقد يعرض اللساني العربي بالدرس والتحليل لقضية معينة من وجهة لسانية يتبع فيها أحدث النظريات اللسانية لكنه سرعان ما يتبنى قضية أخرى وموقفا تقليديا بعيدا عما قاله القدماء وربما بكيفية أقل توفيقا وقد يحصل الانتقال من موقف إلى آخر ثانيا الدراسة الواحدة¹².

نظرية العامل بداية الطريق :

تعد نظرية العامل أو العمل النظرية الأساسية في النحو العربي باعتبارها نظرية تقوم على تفسير تراكييب وبناء الجملة وتعلق الكلمات بعضها ببعض لتكوين الجمل والتراكيب النحوية السليمة والصحيحة انطلاقاً من العلامات والقرائن ، وإن كان أغلب النحاة والباحثين اللغويين قد تعرضوا إلى هذه النظرية بدراسة نقدية أكثر من كونها تنظيراً للنحو العربي ، حيث ظهر كتاب ابراهيم مصطفى الموسوم بـ "إحياء النحو" ، في بداية الثلاثينيات كأول مقارنة نقدية شاملة للنحو والتراث العربي حيث لقب هذا الكتاب بـ "مفهوم نظرية العامل" ويقول صاحبه في هذا السياق "ويطلقون في شرح العامل وشرطه ووجه عمله حتى تكاد نظرية العامل تكون عندهم هي النحو كله"¹³ .

حتى وإن قد سبق هذا الكتاب إنجازات أخرى يمكن أن نؤرخ بها البداية الفعلية لتشكيل الخطاب اللساني العربي بظهور كتاب رفاعة الطهطاوي (1801/1873م) في كتابه "التحفة المكتبية" (1868م) كمحاولة لتسهيل النحو العربي للدارسين ، وإن كانت لهذه الفكرة جذور قديمة تعود إلى القرن الهجري السابع حين ألفت تلك المتون والمنظومات النحوية الداعية إلى تيسير النحو وتسهيل معرفته وأشهرها : "ألفية ابن معطي" (628 هـ) ، "الكافية" لابن حاجب (646 هـ) و"الكافية الشافية والألفية والتسهيل" لابن مالك (672 هـ) و"الأجرومية" لابن أجروم (723 هـ) و"شذور الذهب" لابن هشام (761 هـ)¹⁴ ، إلا أن ابراهيم مصطفى كان له وجهة أخرى حيث كان هدفه تغيير منهج البحث النحوي وبعض الظواهر والأنظمة النحوية في التراث اللغوي العربي والاستعاضة

ببديل آخر أنسب ابتداء بتعريف النحو ، ولعل ما ميز كتابه هو دعوته إلى إلغاء نظرية العامل من أصلها وبالتالي إلغاء كل ما يترتب عليها من تقدير وتعقيد ، ولكن السؤال الذي يبقى مطروحا في هذا المقام ، هل جاء ابراهيم مصطفى بنظرية بديلة عن هذه النظرية أم أنها مجرد دعوة للإحياء النمو كمشاهدة لتيسيره على غرار تلك المحاولات التي ظهرت في عصر النهضة وإلى " إعادة النظر في درس العربية انتهى إلى الإبقاء على الجانب التعليمي وحده وإبرازه بغض النظر عن الأصول ومنهج البحث ، وهذا كله لا يدخل في باب التجديد الذي يقوم على أصول جديدة ومنهج جديد ونظرية جديدة " ¹⁵.

لا بأس أن نشير في هذا المقام كذلك أن ابن مضاء القرطبي (592/511 هـ) قد سبق ابراهيم مصطفى في حمل لواء الدعوة الى تحطيم قيود نظرية العامل إلا أن ابن مضاء جاء بالحجج والدلائل التي تدعم تصوره أهمها :

- أن العامل سبب في اضطراب باب الاشتغال ، فاجتزأ بقاعدة ميسورة عن تقسيمات النحاة ومؤداها أن الاسم المتقدم إذا عاد عليه ضمير منصوب أو ضمير متصل بمنصوب نصب ، لأنه في مكان نصب وإلا رفع لأنه في مكان رفع مثل (أزيذا أكرمته ، أزيد قام ؟) فإذا عاد عليه ضميران أحدهما منصوب أو متصل بمنصوب والآخر مرفوع أو متصل بمرفوع جاز رفعه ونصبه مثل : أعبد الله ضرب أخوه غلامه ؟ ¹⁶

- كما نادى بإلغاء الضمائر المستترة في الأوصاف مثل : علي قادم ، أي (هو) ، وأنكر الضمير المقدم في مثل : (علي قادم) ، أي هو ، كما ذهب إلى أن الألف والنون في مثل : قاما ، وقاموا وقمن علامات للتثنية أو الجمع وليست (فاعلين) ¹⁷.

- كما هاجم العلل الثواني والثوالت وغيرها مما أشار إليه المعاصرون من آراء ابن مضاء التي اعتقدوا أنه قصد بها نظرية العامل إلا أن بعض اللغويين المعاصرين خالف هذا الاجماع المعاصر على توجهات ابن مضاء وسعوا إلى اثبات أنه سعى إلى دحض نظرية العامل قاصداً من ذلك إلى تنوير المغالين من النحاة . على حد تعبيره . الى التخفيف من اصطناع العوامل وتكلفتها في كتابه "الرد على النحاة " ¹⁸ .

مهدي المخزومي:

وعلى نفس المنهج سار تلميذه مهدي المخزومي (1910-1993 م) في محاولته لإحياء النحو العربي وتسييره وتجديده والتي كانت بدورها امتداد لمحاولات أخرى جديدة سارت على نفس المنهج لطله حسين وأمين النحولي في مصر ، وأحمد عبد الستار الجواري وانستاس الكرملی وإبراهيم السامرائي وغيرهم في العراق ، وآراء مهدي المخزومي تعد امتداد وتطوير لآراء استاذہ ابراهيم مصطفى سيما في منهجه في دراسته لمسألة الأعراب وأثرها في النحو العربي ، وإلغاء نظرية العامل ، أو دعوته الى دراسة الأساليب أو دراسة الزمن النحو من خلال السياق ، بل وحتى في تعريفه للنحو وحدّه ، وغيرها من الآراء *

وبالتالي يمكن أن نقول أن أعمال وجهود المخزومي كانت امتداد للتيار الحامل للواء التجديد والحداثة فأعماله عامة تقع في دائرة النقد وإصلاح للفكر النحوي العربي.

ولكن هل جاء المخزومي ومن سار على نهجه ممن حملوا لواء التجديد والحداثة بالجديد ؟ أو صياغة نظرية لغوية عربية بديل ؟ هل أعادوا للدرس

النحوي العربي قوته وحيويته ؟ أما أنها مجرد محاولة للإصلاح في المظهر وأناقة في الإخراج على حد قول المخزومي ؟¹⁹

لا شك أنها محاولات أقرب ما تكون وصفا للظواهر اللغوية والقواعد النحوية ومحاولات لعرض ما يخالف الواقع اللغوي فقط سواء في بيان العلاقات التركيبية في الجملة أو تحديد الوظائف النحوية لمكوناتها ، أو تفسير الظواهر اللغوية التي تطرأ على بنيتها كإضمار الفعل والتنازع والاشتغال والزمن النحوي وغيرها من الظواهر التي بسط فيها النحاة القدامى القول ، وكذلك في دراسة الأساليب وحصرها وتمييز الفروق القائمة بينها ، بل حتى أحكامهم نفسها مستنبطة من المادة اللغوية نفسها التي جمعها اللغويون والنحاة القدامى لا تخرج عنها ولا تخرج في كثير من الأحيان عن الأمثلة التي استدلو بها ولما يصحبها من التجديد إلا النصيب الضئيل وبالتالي فهي في نظرنا مجرد محاولة فقط لتسهيل وتبسيط النحو العربي ولا ترقى أن تكون بمثابة نظرية لغوية بديلة !!

تمام حسان:

إن المتتبع لمسار البحث اللساني العربي حتما ستستوقفه محاولة تمام حسان الرائدة في قراءة التراث اللغوي كممثل للتيار الوصفي أو اللسانيات الوصفية كمحاولة ومتميزة في استخراج واستنباط نظرية لغوية دلالية أساسها دراسة المعنى الوظيفي اعتماد على النظرية السياقية التي جاء بها فيرث (firth) وذلك من خلال نقده للمفاهيم الإجرائية للنحو العربي ابتداء بنظرية العامل التي بين أنها تدل على قصور النحاة في اعتمادهم على العامل النحوي الذي لا يمثل إلا قرينة لفظية

واحدة هي قرينة الإعراب أو العلامة الإعرابية القاصرة على تفسير الكثير من المعاني النحوية كالإعراب بالحذف والإعراب المقدر أو المحل الإعرابي للمبنيات والمحل الإعرابي للجمل وغيرها.

يقول تمام حسان رافضا العامل النحوي: "الحقيقة لا عامل... فإذا كان العامل مرفوعا في النحو فلأن العرف ربط بين فكرتي الفاعلية والرفع دون ما سبب منطقي واضح وكان من الجائز أن يكون الفاعل منصوبا والمفعول به مرفوعا لو أن المصادقة العرفية لم تجر على النحو الذي جرت عليه"²⁰.
على أساس أن النحو العربي عبارة عن أجهزة منظمة كل منها له طريقة تركيبية تتجه إلى بيان معنى من المعاني الوظيفية في اللغة دون الحاجة على الاعتماد على نظرية العامل.

أما كتابه "العربية معناها ومبناها" فيمكن توصيفه "بأنه محاولة تسعى إلى تقديم خطاب لسانی عربي سواء تحت مسميات لسانیات التراث أم تحت عنوان اللسانیات العربية، ومن هنا جاء توصيفه بأنه محاولة لقراءة التراث بغية استخراج نظرية لغوية دلالية أساسها المعنى تقارب النظريات اللسانية الدلالية الغربية التي زحزحت الاتجاهات الشكلية في دراسة اللغة عن مكانتها الأولى وكان لهذه الدراسة أثرها البليغ في الدرس اللغوي العربي الحديث"²¹.

وفي هذا الكتاب خصصه تمام حسان لدراسته المعنى على أساس أن النحويين لما يعطوا عناية كافية للجانب الذي يشتمل على طائفة من المعاني التركيبية والمباني التي تدل عليها كمعنى للإسناد... وينقسم المعنى في هذا الكتاب إلى ثلاثة فروع تشكل فصول الكتاب:

أولا: المعنى الوظيفي ويشمل النظام الصوتي والنظام الصرفي والنظام النحوي.

ثانيا : المعنى المعجمي.

ثالثا : المعنى الدلالي أو الاجتماعي.

لذلك يرى تمام حسان أن إدراك المعاني الوظيفية النحوية أو تحليل نص تحليليا نحويا وإدراك العلاقة بين وحداته ²² ، يقتضي تضافر القرائن المعنوية واللفظية* في ثنائية المعنى والمبنى ، كنظرية بديلة ومقاربة لسانية دقيقة وعميقة في النحو العربي فتحت أفقا جديدا في ميدان وحركة البحث اللساني العربي الحديث ، هذه النظرية التي توضع ضمن إطار مشروع تطبيقي وصفي للغة العربية في جميع مستوياتها ، مستوى الصوتي ، الصرفي ومستوى التراكيب والدلالة ، هذه النظرية الجديدة الرائدة التي تسعى ليس فقط على تأصيل مصطلح القرائن ومرادفاته في التراث اللغوي بل إلى ابتكار لغة واصفة جديدة للنظرية اللسانية الحديثة بغض النظر عن مرجعيتها أو خلفياتها المعرفية.

عبد العزيز عبد الدايم :

وهناك بعض المحاولات الجادة والمتميزة كذلك التي تسعى الى استنباط نظرية لغوية من التراث اللغوي عند العرب كمحاولة عبد العزيز عبد الدايم في كتابه "النظرية اللغوية في التراث العربي" ، ولعل سيمائية العنوان تعطينا انطباعا على أنه وفق على بنية نظرية لغوية مستنبطة من التراث اللغوي وعلى مختلف مستويات دراسة اللغة من أصوات إلى صرف إلى نحو... الخ ، والوقوف على الطرق المختلفة لمعالجة المشكلات اللغوية التي تعالجها النظريات الغربية المعاصرة كما تشمل هذه النظرية على مجموعة الفروض ، التي تبناها في كتابه والتي تشكل بدورها نظريات فرعية ، وعلى علاقة هذه الفروض والنظريات الفرعية بعضها

ببعض وعلى مدى تغطيتها لأنظمة الظواهر اللغوية ، وربما كفاءتها على تغطية الظواهر اللغوية في اللغة العربية وفي التراث اللغوي وذلك بتقديمها على شكل مجموعات على اختلاف فروع اللغوية من ظواهر صوتية (فونولوجية) وظواهر صرفية ونحوية ودلالية وكتابية ، وتقديم مختلف الانظمة التي تشمل عليها هذه الظواهر وتقديم نظريات التراث اللغوي العربي التي قسمها إلى ثلاثة أصناف:

- النظرية اللغوية العامة للتراث اللغوي كله.
- النظرية أو النظريات الأساسية للفروع الدرس اللغوي.
- النظريات الغير الأساسية لهذه الفروع كذلك والتي قسمها كذلك إلى نظريات تكميلية لنظرية الأساسية ونظريات بديلة عن النظرية الأساسية²³.

أحمد المتوكل :

وهناك من اللسانيين العرب من تجاوز تلك القضايا اللغوية التي سبقت الإشارة إليها إلى بلورة نظرية لسانية عربية وانتقل من مرحلة التأصيل إلى مرحلة الاسهام والتطوير ونقصد بها نظرية النحو الوظيفي التي أسس صاحبها أحمد المتوكل من خلالها مشروعا لسانيا متكاملًا يعد أقرب المقاربات اللسانية إلى وصف وتفسير ظواهر اللغة العربية ، هذه المقاربة التي تربط بنية اللغة بوظيفتها التواصلية ، أما الخلفية المرجعية لهذه النظرية هي النظرية الوظيفية لسيمون ديك (*simone Dik*) ، يقول المتوكل في هذه الصدد : "يعتبر النحو الوظيفي (*fonctionnel grammaire*) الذي اقترحه سيمون ديك في السنوات الأخيرة في نظرنا النظرية الوظيفية التداولية الأكثر استجابة لشروط التنظير من جهة ول مقتضيات (النمذجة) للظواهر اللغوية من جهة أخرى ، كما يمتاز للنحو

الوظيفي على غيره من النظريات التداولية بنوعية مصادره ، فهو محاولة لصهر بعض مقترحات نظريات لغوية : النحو العلاقي، نحو الأحوال الوظيفية ، ونظريات فلسفية (نظرية الأفعال اللغوية) ، أثبتت قيمتها في نموذج صوري مصوغ حسب مقتضيات النمذجة في التنظير اللساني الحديث " 24.

لذلك فإن المشروع اللساني عند المتوكل بدأ بإعادة قراءة التراث اللغوي القديم لإبراز أصالته مع تبني فكرة تطعيم اللغة العربية أو البحث اللغوي القديم بمعطيات ومفاهيم ونماذج لسانية حديثة بما فيها نظرية النحو الوظيفي ، يقول أحمد المتوكل في هذا الصدد : " حاولنا جهدنا في هذه المجموعة من الدراسات أن نشارف هدفين اثنين : إغناء لسانيات اللغة العربية بتقديم أوصاف وظيفية لظواهر نعدّها مركزية بالنسبة لدلالات وتركيبات وتداوليات هذه اللغة ، وتطعيم النحو الوظيفي ، كلما مست الحاجة إلى ذلك بمفاهيم يقتضها الوصف الكافي لهذه الظاهرة أو تلك " 25.

وقد وصف مازن الوعر المنهج الذي سارت عليه النظرية الوظيفية للمتوكل " الذي يقوم على دمج البحث اللساني العربي القديم في البحث اللساني الحديث مع الإبقاء على هوية البحث اللساني العربي القديم وكيانه كبحت يمثل نظرية لسانية ذات خصائص متميزة " 26.

وتبني نظرية أحمد المتوكل على تحليل معطيات اللغة العربية من خلال الوظائف الثلاثة في النحو الوظيفي:

- وظائف دلالية : وهي الأدوار التي يأخذها كل محل من محلات الموضوعات بالنسبة للواقعة التي يدل عليها المعمول وتشمل على الوظائف الآتية : (المنفذ، المتقبل، المستقبل، الأداة، المكان، الزمان، الحال) 27.

- وظائف تركيبية : وتعتمد على وصف وتحليل وظيفتين أساسيتين في اللغة العربية هما (الفاعل والمفعول)، ويتم اسناد هاتين الوظيفتين إلى الحدود في الجملة وفق سليمة الوظائف الدلالية التي أشرها إليها سابقا.²⁸
- وظائف تداولية : تعمل على تحديد الوظائف التداولية في اللغة العربية من خلال نوعين من الوظائف:

أ- خارجية :وتتمثل في وظيفة (المبتدأ ، الذيل ، المنادى).

ب- داخلية :وتتمثل في وظيفة (البؤرة ، والمحور) والعلاقة بين مكونات الجملة يقوم على أساس وظيفة تداولية يتحكم فيها المقام الذي تنجز فيه هذه الجملة أو البنية الاخبارية أو التواصلية بين المتكلم والمخاطب المرتبطة بهذا المقام أو الوضع الاخباري.²⁹

ومن خلال هذا المشروع اللساني يمكن ان نستنتج أن أحمد المتوكل استطاع . وبغض النظر إلى الانتقادات التي وجهت إلى هذا المشروع . خلق نموذج لغوي متميز لنظرية لسانية جديدة من خلال خطاب علمي حديث ولغة واصفة متميزة ، وآلية خلّقه لتفسير بعض قضايا اللغة العربية ، هذا الخطاب الذي ينطلق من التراث اللغوي القديم ليدخله في علاقة وتواصل وتفاعل مع الخطاب اللساني العلمي الحديث.

عبد الرحمان الحاج صالح :

وفي هذا السياق تفق كذلك على نظرية لسانية عربية متميزة ورائدة في البحث اللساني عند العرب لعبد الرحمان الحاج صالح ، هذه النظرية التي أسماها

صاحبها " النظرية الخليلية الحديثة " تميزت أفكارها ومبادئها بالأصالة والتجديد لاهتمامها بعباقر النحوي العربي وعلى رأسهم الخليل بن أحمد الفراهيدي وسيبويه ، حيث سعت هذه النظرية إلى المحافظة على التراث وإحياء المصطلح اللغوي الأصيل واقتراح مصطلحات جديد في علم اللسان.

لقد تمكنت عبقرية الحاج صالح بعد رسوخ قدمه في التراث اللغوي إلى رسم منحنى جديد لنموذج أو نظرية لسانية كانت بمثابة الرافد الذي ساهم في إغناء الدراسات اللسانية الحديثة في الثقافة العربية سواء من حيث فائدة التأصيل لأفكار كبار علماء اللغة القدامى أو من حيث فائدة التحديث في البحث اللساني في اللغة العربية بفضل سعة اطلاعه على النظريات اللسانية الغربية الحديثة ، فهي نظرية تجمع بين الأصالة ممثلة في استحياء مستخلصات ثمانية قرون أو تزيد من مخاض التفكير اللغوي عند العرب ، وعلى رأسها أفكار ومبادئ الخليل بن أحمد وسيبويه ، والحداثة ممثلة في انتقاد ما يتألف ويتقارب من تلك الأفكار والمفاهيم انطلاقاً من النظريات الغربية الحديثة وخاصة منها النظرية التوليدية التحويلية ، مكونة بذلك نظرية متميزة متماسكة قديمة في أصولها حديثة في منهجها وتوجهها العلمي.

إن عبد الرحمان الحاج صالح صاحب النظرية الخليلية وصاحب مشروع "الذخيرة العربية عن طريق البرمجة الحاسوبية " أسهم إسهاماً في خدمة اللغة العربية من خلال البحوث الكثيرة التي أنجزها في إطار هذه النظرية ومن خلال جهوده الرامية لتطوير تدريس اللغة العربية وجعلها اللغة المستعملة بالفعل في جميع المجالات الحيوية وخاصة مجال التدريس ، فهذه النظرية تقترح تصورات

لتعليم اللغة العربية للناطقين بها وبغيرها من اللغات انتقاء وترتيباً وعرضاً وترسيخاً في ضوء المبادئ التربوية الحديثة.

كما تحتفل نظرية الحاج صالح بدراسة البنية بشكل واضح مع الاحتفاء بدراسة نظرية العامل ودوره الوظيفي في بناء التراكيب اللغوية وفهمها من خلال دراسة لسانية علمية حديثة ، ومن أبرز المفاهيم التي قامت عليها هذه النظرية كذلك :

مفهوم الاستقامة التي جاء بها سيبويه ، فقد توصل الحاج صالح إلى صياغة المعاني صياغة رياضية مجردة وهي معاني لم يتوصل إليها المحدثون في اللسانيات ماعدا تشومسكي عندما ميز بين الجمل النحوية (القواعدية) والجمل غير النحوية أو ما يسمى بقواعد انتاج الكلام عند المستمع المثالي أو الآلة المولدة كما يسميها تشومسكي للتفريق بين الجمل المستقيمة والجمل غير المستقيمة في القياس والاستعمال.³⁰

مبدأ إجراء الشيء على الشيء أو حمله عليه ، على سبيل التناظر بعد استنباط الجامع بينهما ، وأول قانون يرتبط بهذا التصور هو قانون الأصل والفرع (*le racine et la branche*) ، وهو مبدأ عربي خالص عند الحاج صالح في القياس اللغوي العربي وعند النحاة العرب القدامى يعتمد هذا المبدأ على مقابلة الوحدات النحوية في نظام المجموعات²

وهذا القياس اللغوي عند العرب يختلف في كثير من النقاط عن القياس اليوناني في ميدان البحث اللساني سواء في النظر تحليل الظاهرة اللغوية أو في المنهجية التطبيقية على اللغة وذروة تطبيقه تظهر جليا في كتاب سيبويه.

ومن المفاهيم الاجرائية في القياس النحوي والتي قامت عليها النظرية الخليلية كذلك "الاختبار النحوي للمادة اللغوية (*le test grammaticale de la langue*) وهو عملية إجرائية تسلط على المادة (القطعة) وترافقها الملاحظة الدقيقة وتدوين النتائج بعد تطبيق طريقة الإدخال والإخراج (*input/output*)³¹. وهذا القياس العربي الأصيل في تحليل بعض قضايا اللغة العربية تتميز وتنفرد به نظرية عبد الرحمان الحاج صالح خاصة في التفريق بين الواقع الصوري أو النظام الداخلي (المغلق) والواقع الخارجي (النظام الخارجي المفتوح). الاستنباط (الجدل أو المثال أو الباب) : حيث يقوم هذا الاجراء على ترتيب القطعة اللغوية على أساس تفريغي وذلك بتحديد أيها أصل للأخرى فيتبين بهذا الإجراء المواضع المرتبة

المحفوظة للعناصر اللغوية ، وعلى هذا الأساس العقلي والمنهجي في الاستنباط الذي ينطلق من مستوى اللفظة (أقل وحدة لفظية مفيدة)³². إضافة إلى أن هذه النظرية أعادت الاهتمام بمفهوم العامل وأكدت دوره الوظيفي في بناء التراكيب اللغوية وفهمها وغيرها من المفاهيم السانية المتميزة والرائدة لقيامها على الاستدلال العقلي السليم والمنطق الرياضي الصحيح وعلى آخر ما توصل إليه العلم الحديث والتكنولوجية المعاصرة من حقائق وأبحاث في تفسير الكثير من قضايا اللغة العربية ، إضافة الى الكثير من المفاهيم اللسانية الجديدة التي تميزت بها هذه النظرية والتي لا يسعنا المقام لذكرها رغم أهميتها كمفهوم الكلمة واللفظة ومفهوم الموضع والعلامة العدمية...* وفي آخر المطاف وصلت إلى جملة من النتائج أذكر منها:

أغلب الدراسات اللسانية العربية الحديثة كانت تدور حول علاقة البحث اللساني بالتراث سواء اتفاقا أو اختلافا أما التي تبنت ما جاء في التراث جملة وتفصيلا فبقي أصحابها يدورن في فلك واحد حول جل القضايا والتحليلات والاستدلالات التي تناولنا النحاة القدامى في كتبهم شكلا ومضمونا ولم يضيفوا شيئا جديدا إلى البحث اللساني ولم يتعدوا حدود اللغة الواصفة ، وبالتالي لم يفلحوا في بناء نظرية لغوية ، وأما الذين دعوا إلى الحداثة والتجديد والتخلي عن التراث فحاولوا تبني نماذج لسانية غريبة ثم تطبيقها على بعض قضايا اللغة العربية لجعلها تستجيب لطبيعة النموذج المتبنى كما نجد عند الذين تبنوا المنهج التوليدي التحويلي ولم يفلحوا هم كذلك في بناء نظرية لسانية عربية.

. بالغ بعض اللسانيين في دراسة نظرية لعامل دون غيرها من المفاهيم وقضايا العربية ، وأخذت دراستها حجما أكثر من غيرها وكأنها هي النظرية الوحيدة في النحو العربي التي توصف بالنظرية !! ولو أن هذه الدراسات اهتمت ورصدت مفاهيم وقضايا أخرى في التراث العربي لبلغت أشواطا متقدمة مما هي عليه الآن. لعل أهم مشكلة ما زالت تتخبط فيها الكثير من الدراسات والانجازات التي توصل إليها لغويونا رغم تحليلها بالجدة ، هي الافتقار إلى التأصيل (تأصيل البحث اللساني) لما يمكن أن يعد نظرية لسانية وما لا يعد كذلك وبالتالي عدم تقديم هذه الدراسة والانجاز إلى القارئ العربي بالشكل الصحيح والمطلوب.

. هناك بعض علماء اللسان العرب من فتح الباب لتأسيس ثورة لغوية حقيقة في مجال اللسانيات واستطاع بلورة نظرية لسانية عربية مميزة جعل واستحدث من اللسانيات أداة واصفة لوصف معطيات اللغة العربية من خلال ممارسة لسانية علمية حديثة مزودة بمعطيات الوصل والاستدلال والتفسير كالتالي

أفرزتها النماذج اللسانية الغربية ، وبالقدرة على استنباط النماذج والآليات والأطر النظرية الصالحة لوصف اللغة العربية بفضل بلوغه قدرة لسانية متقدمة مزودة بقيم معرفية ومؤسسة على أرضية صلبة وبفضل إستعابه وتمرسه بتقنيات المدارس اللسانية الغربية باختلاف اتجاهاتها من بنيوية وتوليدية ووظيفية وغيرها أمثال أحمد المتوكل ونظريته في "النحو الوظيفي" وعبد الرحمان الحاج صالح ونظريته "النظرية الخيلية الحديثة".

الهوامش

1. عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية ص 26.
2. ابن منظور ، لسان العرب مادة (ع، ل ، م).
3. انظر موسوعة لالاند الفلسفية لاندرية لالاند ، ترجمة خليل أحمد خليل ، عويدات للنشر والطباعة ج1، ص 289
4. عبد العزيز عبد الدايم ، النظرية اللغوية في التراث العربي ، دار السلام ، ط1، 2006، مصر، ص 17
5. نفسه ص 22
6. مصطفى غلفان ، اللسانيات العربية الحديثة ، دراسات نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية ، جامعة الحسن الثاني المغرب . سلسلة رسائل وأطروحات رقم 4، 1998، ص 92
7. عبد السلام المسدي ، التفكير اللساني في الحضارة العربية، دار الكتاب الجديد ، المتحدة ط3، 2009، ص 39.
8. مازن الوعر، قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث، ص 514.
9. زكريا ميشال ، الألسنية التوليدية التحويلية وقواعد اللغة العربية ، (الجملة البسيطة) ط1 ، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع ، 1983م ، ص 5.
10. انظر عبد القادر الفاسي الفهري ، اللسانيات و اللغة العربية ، ج1، ص54 وما بعدها

11. تمام حسان ، مناهج البحث في اللغة ، دار الثقافة ، الدار البيضاء المغرب ، 1986 ، ص 5.
12. انظر مصطفى غلفان ، اللسانيات العربية الحديثة ، دراسة نقدية في الأسس النظرية والمنهجية ، ص 86-87.
13. مصطفى ابراهيم ، إحياء النحو ، القاهرة ، دار الكتاب الإسلامي ط2، ص 22.
14. انظر اللسانيات ، في الثقافة العربية ، اسماعيل حافظ علوي هامش ، ص 25
15. خليل حلمي، العربية وعلم اللغة البنيوي ، ص 65.
16. انظر توفيق سبع ، أثر الفكر الفلسفي في الدراسات النحوية ، مجلة كلية اللغة العربية بجامعة محمد بن سعود العدد 8، 1398 هـ ، 1978 ، ص 211.
17. نفسه ص 207.
18. انظر عدنان ، بن ذريل ، مقال نشر في مجلة الثقافة السورية ، دمشق ، آب 1980 ، ص 6/2.
- * لمزيد من التوسع في هذه الآراء أنظر كتابيه "في النحة العربي ، نقد وتوجيه " و " في النحو العربي ، قواعد وتطبيق"
19. انظر مهدي المخزومي ، في النحو العربي ، نقد وتوجيه ، ص 15.
20. اللغة بين المعيارية والوصفية ص 51 .
21. صلاح الدين الشريف ، النظام اللغوي بين الشكل والوظيفة من خلال كتاب تمام حسان "اللغة العربية معناها ومبناها" ، بحث حوليات الجامعة التونسية 1979 م ، ص 17.
22. أنظر، اللغة بين المعيارية والوصفية ص 51.
- * القرائن المعنوية هي : قرينة الاسناد ، التخصيص ، النسبة ، التبعية. قرائن اللفظية هي : العلامة الاعرابية ، الرتبة ، الصيغة ، المطابقة ، الربط ، التضام ، الأداة ، النغمة.
23. انظر عبد العزيز عبد الدايم ، النظرية اللغوية في التراث العربي ، دار السلام للطباعة والنشر، ط1، 2006 م مقدمة ، ص 55 وما بعدها.
24. أحمد التوكل ، الوظائف التداولية في اللغة العربية ص 7 .
25. نفسه ، ص 14.
26. مازن الوعر، قضايا أساسية في عليم اللسان الحديث، ص 516.

27. انظر أحمد المتوكل ، من البنية الحملية إلى البنية المكونية الوظيفية في المفعول في اللغة العربية ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء 1997 ، ص 16.
28. انظر أحمد المتوكل ، دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفية ، دار الثقافة الدار البيضاء ، ط1، 1986، ص 203، وما يليها.
29. أنظر نفس المرجع السابق ص 109.
30. انظر خليل أحمد عمارة ، في نحو اللغة وتراكيبها ، منهج وتطبيق ، دار علم المعرفة ، ط1، ص 57/56.
31. انظر، د/ عبد الرحمن الحاج صالح ، المدرسة الخليلية الحديثة والدراسات اللسانية الحالية في العالم العربي ، ص379.
- ³². المرجع نفسه ص 380 .
- *لمزيد من المعلومات انظر د/ عبد الرحمن الحاج صالح ، المدرسة الخليلية الحديثة والدراسات اللسانية الحالية في العالم العربي ص 244 وما بعدها.

